

إشكاليّات الترتيب التاريخي للقرآن

نادر الحمّامي
باحث تونسي



قسم الدراسات الدينية

"إنّ أهمّ شيء أتى به العلم الحديث بخصوص القرآن هو تورخته"،
هشام جعيّط.

"كلّما طالّت دراستي للقرآن وتعمّقت، انجلى لي بوضوح أكبر أنّ من بين السور المكيّة مجموعات متفرّقة يمكن الفصل بينها، وذلك مع انعدام إمكانية القيام بأيّ ترتيب تاريخيّ دقيق للسور. وكم من دليل وجدته من قبل مناسباً لهذا الغرض بدا لي لاحقاً غير موثوق به، وكم من زعم أبديته قبلاً بقدر كبير من الثقة بدا لي من بعد فحص متكرّر وأدقّ أنّه زعم غير أكيد"، تيودور نولدكه.

أصبحت مسألة الترتيب التاريخي للقرآن محورا شبه قارّ في الدراسات القرآنيّة الحديثة والمعاصرة، وكان ذلك بالخصوص بداية من منتصف القرن التاسع عشر. ويبدو أنّ هذا الاهتمام ناجم عن اقتناع مشترك بين الدارسين المحدثين، يتمثّل في اعتبار الوقوف على الترتيب التاريخي للقرآن مدخلا أساسياً لفهم القرآن المجسّم الأوّل للدعوة المحمّديّة وتطورها. ولكن لا يمكن أيضاً التغافل عن انتباه الاستشراق الكلاسيكي إلى القوائم المثبتة في مصنّفات المسلمين القدامى، والتي تجمع روايات عن ترتيب سور القرآن ترتيباً تاريخياً؛ فكانت تلك الروايات محلّ دراسة تطوّرت شيئاً فشيئاً، لتصبح مبحثاً مهماً من مباحث الدراسات القرآنيّة.

إنّ مشغلنا الأساسي لا يكمن في عرض محاولات القدامى والمحدثين فيما يتعلّق بترتيب سور القرآن وآياته ترتيباً تاريخياً بقدر ما يتلخّص في سعيها إلى تناول ما تطرحه تلك المحاولات من إشكاليّات، قد تعترض المقلّب عند نظره في هذه القضية. غير أنّ الخطوات الأولى السابقة لطرح تلك الإشكاليّات تبقى التعرّض إلى بعض محاولات الترتيب ومنطلقاتها ومستنداتها وغاياتها.

ولعلّه يحسن في البداية الإشارة إلى أمر يكاد يكون مُجمعا عليه، سواء في مصنّفات المسلمين القدامى أو كذلك في الدراسات الحديثة ويتعلّق بصعوبة الترتيب التاريخي للقرآن، إن لم نقل استحالته. مثل هذا الأمر، يصرّح به قول منسوب إلى محمّد بن سيرين، وجاء فيه: "فقلت لعكرمة: أأفوه [يعني الصحابة] كما أنزل، الأوّل فالأوّل. قال: لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يؤلّفوه هذا التّأليف ما استطاعوا"¹. وعبر تيودور نولدكه

¹ - السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، اسطنبول، ط4، 1987، ج1، ص 77

صراحة عن هذه الاستحالة، خاصّة بالنسبة إلى السور المكّيّة، فيقول: "من المستحيل وضع تسلسل زمنيّ دقيق للسور القديمة، لا بل للسور المكّيّة بأسرها"².

ولكن رغم ذلك، فإنّ المصنّفين المسلمين القدامى والباحثين المحدثين، مستشرقين ومسلمين، قاموا بمحاولات ترتيب تاريخيّ متعدّدة، سناحول في ما يلي التعرّض إلى أبرزها والتعليق عليها ومحاولة بيان ما قد تثيره من إشكاليّات، وهذا هو الغرض الأساسيّ من هذا العمل.

ولكن قبل ذلك، يجب أن نشير إلى أنّ هذا العمل الذي يروم طرح الإشكاليّات أكثر من البحث عن الحلول كان نتيجة تقليب طويل لمحاولات ترتيب القدامى والمحدثين للقرآن ترتيباً تاريخياً، وهو أيضاً مساهمة أخرى لبحوث في هذا المجال نفسه، انطلقت منذ سنوات قليلة لإعادة النظر في المقاربات التاريخيّة، لتشكّل القرآن وتطوّره ونشيره هنا بالخصوص إلى ثلاثة أعمال أساسيّة أفدنا منها كثيراً في هذا البحث، العملان الأوّلان نقديّان يقومان على المراجعات، والعمل الثالث تقنيّ يقدّم مشروعاً جديداً، وهذه الأعمال هي:

- Emmanuelle Stefanidis, "The Qur'an Made Linear: A Study of the *Geschichte des Qorans'* Chronological Reordering", in *Journal of Qur'anic Studies*, vol X, Issue II, (2008), pp 1-22
- Gabriel Said Reynolds, "*Le Problème de la chronologie du Coran*" in *Arabica* 58, (2011), pp 477-502
- Behnam Sadeghi, "*The Chronology of the Qur'an: A Stylometric Research Program*" in *Arabica* 58, (2011), pp 210-299

إنّ العمل الذي نقدّمه هنا أقرب إلى الباحثين الأوّلين مع محاولة تطوير لما جاء فيهما فيما يتعلّق بمحاولات المسلمين القدامى، واستدراك النقص المتعلّق بعدم التعرّض لمحاولات المسلمين المعاصرين في مسألة الترتيب التاريخي للقرآن.

²- نولدكه، تاريخ القرآن، نقله إلى العربيّة وحقّقه جورج تامر، بيروت، 2004، ص 57

الترتيب التاريخي في مصنفات القدامى:

ربّما علينا أن نشير بداية إلى أنّ بعض طبعات المصاحف قد تضمّنت تنصيحا في مطالع السور على المكي والمدني وعلى ترتيب نزول السور، وكذلك إشارة إلى الآيات المدنيّة في السور المكيّة، والآيات المكيّة في السور المدنيّة، وهذا الترتيب هو ما يمكن أن نطلق عليه ترتيب المصحف، والمصحف المقصود هنا هو مصحف القاهرة الصادر سنة 1924 تحت إشراف الأزهر برواية حفص عن عاصم. وسيكون هو المصحف المرجع بالنسبة إلينا. غير أنّ ما ينبغي ملاحظته أنّ ترتيب المصحف هذا لا يتبنّى أيّ ترتيب آخر ورد في القوائم التي اطّلعنا عليها فيما أثبتته القدامى من قوائم الترتيب التاريخي للنزول، بل إنّ مواضع التوافق في الترتيب قليلة جدًا إذا ما رمنا المقارنة. وحتى لا يبقى كلامنا نظريًا ودون شواهد، يمكن على سبيل المثال، تقديم أنموذج يتعلّق بالخمس عشرة سورة الأخير في المصحف مع ذكر ترتيب نزولها في المصحف ولدى الزهري³ وابن النديم⁴ والسيوطي⁵، وثلاثتهم من أشهر من قدّم قوائم تتعلّق بترتيب السور حسب النزول:

السورة ورقمها	ترتيب نزولها حسب المصحف	ترتيب نزولها في رواية الزهري	ترتيب نزولها في رواية ابن النديم	ترتيب نزولها في رواية السيوطي
العاديات 100	مكيّة 14	مكيّة 12	مكيّة 13	مكيّة 13
القارعة 101	مكيّة 30	مكيّة 29	مكيّة 29	مكيّة 29
التكاثر 102	مكيّة 16	مكيّة 15	مكيّة 15	مكيّة 15
العصر 103	مكيّة 13	مكيّة 13	مكيّة 9	مكيّة 12
الهمزة 104	مكيّة 32	مكيّة 33	مكيّة 31	مكيّة 31
الفيل 105	مكيّة 19	مكيّة 18	مكيّة 18	مكيّة 18
قريش 106	مكيّة 29	مكيّة 28	مكيّة 28	مكيّة 28
الماعون 107	مكيّة 17	مكيّة 16	مكيّة 16	مكيّة 16
الكوثر 108	مكيّة 15	مكيّة 14	مكيّة 14	مكيّة 14
الكافرون 109	مكيّة 18	مكيّة 17	مكيّة 17	مكيّة 17
النصر 110	مدنيّة 114	مدنيّة 102	مدنيّة 100	مدنيّة 101
المسد 111	مكيّة 6	مكيّة 5	مكيّة 5	مكيّة 5
الإخلاص 112	مكيّة 22	مكيّة 21	مكيّة 19	مكيّة 21
الفلق 113	مكيّة 20	مكيّة 19	مكيّة 20	مكيّة 19
الناس 114	مكيّة 21	مكيّة 20	مكيّة 21	مكيّة 20

لئن سقطت من رواية ابن النديم سورتا الفاتحة¹، وص³⁸، ومن رواية السيوطي سورة الفاتحة¹، وهما من السور المتقدّمة مبدئيًا من جهة ترتيب النزول عن السور المدرجة في الجدول، فإنّ المقارنة تبقى جائزة،

³- ورد هذا الترتيب في كتاب تنزيل القرآن المنسوب إلى الزهري في آخر كتاب الناسخ والمنسوخ، بيروت، ط2، 1988/1408، ص ص 37-42

⁴- ورد الترتيب في ابن النديم، الفهرست، ج1، ص ص 124-128

⁵- ورد الترتيب في السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص 14، والرواية هي إحدى الروايات الكثيرة عن ابن عباس في مصادر مختلفة.

والملاحظة العامّة والظاهرة أنّه لا اتّفاق حول ترتيب النزول في المصادر المذكورة، ليبقى التقارب واضحا بين ترتيب المصحف ورواية السيوطي عن ابن عباس بالنسبة إلى السور المكيّة، بل إنّه إذا أضفنا سورة الفاتحة إلى قائمة السيوطي، فإنّ التطابق يكون كليًا، لتبقى سورة النصر 110 ممثّلة للاختلاف الحقيقي بين الروايتين. وهذا الاختلاف هو أكثر ما لفت انتباهنا لتساءل ما الذي جعل واضعي مصحف القاهرة يؤكّدون أنّ سورة النصر هي آخر ما نزل من القرآن؟

لا نزع امتلاك إجابة يقينيّة وثابتة، ولكن ما نذهب إليه أنّ مثل هذا الترتيب يستند في المقام الأوّل إلى تمثّل للسيرة النبويّة، يجعل من النصر والفتح ودخول النّاس في دين الله أفواجا خاتمة مشوار النبيّ، وهو تمثّل، فيما نحسب متأخّر تاريخيًا. غير أنّ الأهمّ بالنسبة إلينا هنا أنّ هذه الملاحظة قد تنسحب على روايات القدامى، لتتساءل عن مستندات ما قدّموه من قائمات الترتيب التاريخي لسور القرآن.

يذهب الكثير من الدارسين المحدثين إلى اعتبار أنّ اهتمام المسلمين القدامى بالترتيب التاريخي للقرآن يعود أساسا إلى المشغل الفقهي، حيث يرتبط الأمر في نظرهم بمعرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن.⁶ ولئن كان لمثل هذا الاعتبار أهميّة وله أيضا ما يبرّره بحكم وصول مصنّفات قديمة في علم النّاسخ والمنسوخ، وأهمّها كتاب أبي عبيد القاسم بن سلام (ت 224 هـ) بالإضافة إلى اهتمام المفسّرين القدامى بهذا المبحث، فإنّ الأمر يبقى في حاجة إلى تدقيق كبير، وخاصّة من جهة الأسبقية التاريخية لاهتمامات المسلمين بداية من عصر التدوين بالخصوص.

إنّ ما نذهب إليه وسنحاول البرهنة عليه، أنّ الاهتمام بترتيب القرآن تاريخيًا لم يكن نابعا في البدء من حاجات تفسيرية أو فقهية بقدر ما كان ناتجا عن الانشغال بكتابة سيرة النبيّ. وهذا الاعتبار الذي ذهبنا إليه له ما يبرّره موضوعيًا، وهو أنّ أولى المصنّفات التي وصلتنا كانت في السيرة والمغازي، ونقصد على سبيل التدقيق سيرة ابن إسحاق، إذ نقف على اعتماد مكثّف على الآيات القرآنية لصياغة سيرة النبيّ، والواضح أنّ ذلك الاعتماد كان للمبحث عمّا يدعم تمثّلًا مخصوصا لحياة النبيّ في القرآن أكثر من استخراج حياته من الآيات. ولعلّ هذا التصرّو هو ما أشار إليه هشام جعيط بقوله: "لقد أراد ابن إسحاق الاعتماد على القرآن لكي يردّ إلى هذه الآية أو تلك حدثًا ما، ويعيّن اسم شخص ما قد تشير إليه الآية؛ فهو يملأ الفراغ بالأخبار أو يحاول ذلك، ويخطئ في الكثير"⁷. إنّ مثل هذا القول قد يجعلنا نفهم أنّ ابن إسحاق لا ينطلق من القرآن لبناء السيرة، بل إنّ حدثًا ما في السيرة جاهز عنده، ويبحث له في القرآن عمّا يدعمه، ليتخذ الأمر بُعدًا تفسيريًا وتؤيّلًا أكثر من

⁶- Gerhard Bowering, "Chronology and the Qur'an", in *Encyclopedia of the Qur'an (EQ)*, I, pp 316- 335: "From the earliest centuries of Islam, the jurists and scholars of religious law (fuqaha') developed a particular sensitivity for chronological inconsistencies affecting a variety of legal stipulations in the Qur'an", (p320).

⁷- هشام جعيط، تاريخية الدعوة المحمّدية في مكة، بيروت، دار الطليعة، 2007، ص 184

اتّخاذة منحى تاريخيًّا. ولعلّ هذا الأمر يجعل صاحب السيرة يركّب الآيات المتباعدة من السور المختلفة دعماً لما استقرّ عنده من تمثّل للسيرة. إنّ الشواهد على ما لاحظناه كثيرة، ونكتفي هنا بإيراد بعض الأمثلة لبيان ذلك.

يذكر ابن إسحاق بمناسبة تعرّضه لقصة الأبحار رواية عن عكرمة جاء فيها: "أنّ ناساً من أهل الكتاب آمنوا برسولهم وصدّقوا وآمنوا بمحمّد (ص) قبل أن يُبعث، فلما بُعث كفروا به. فذلك قوله تبارك وتعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ [آل عمران 106/3]. وكان قوم من أهل الكتاب آمنوا برسولهم وبمحمّد (ص) قبل أن يبعث، فلما بُعث آمنوا به فذلك قوله: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ [محمّد 17/47]"⁸.

ما يمكن أن نلاحظه من خلال هذا الشاهد، وأضرابه كثير في سيرة ابن إسحاق وفي مصنّفات السيرة بعده، أنّ الأمر لا يتعلّق مطلقاً بالانطلاق من القرآن باعتباره مصدراً للسيرة النبويّة، بل العكس هو الذي حصل؛ فالآيتان المذكورتان تصديق للخبر الجاهز مسبقاً، أو على الأقلّ نحن إزاء نوع من التأويل وخاصة بالنسبة إلى الجزء المقطوع من الآية 106 من سورة آل عمران. فالملاحظ أنّ هذه الآية استعملت في سياقات مختلفة؛ فالطبري مثلاً لا يعرض مطلقاً ما ذهب إليه ابن إسحاق عن عكرمة، فروى عن قتادة والسديّ أنّ المعنيتين بهذا الجزء من الآية هم في الأصل من المسلمين الذي رجعوا عن إيمانهم واقتتلوا، وروى عن أبي أمامة أنّهم الخوارج، وروى عن أبيّ بن كعب أنّهم الكفار، وهو ما رجّحه الطبري، وروى عن الحسن أنّهم المنافقون⁹. فالملاحظ إذن، أنّ الروايات التي جمعها الطبري هنا لا علاقة لها بالسيرة بالشكل الذي أراد ابن إسحاق الإلحاح عليه، وهو يحشد أخبار البشارات بنبيّ الإسلام وعلم أهل الكتاب بمبعثه.

ولعلّ المثال الثاني الذي نقدّمه يكون أوضح ويتعلّق بسورة الرحمان 55 التي اعتبرت في سيرة ابن إسحاق أوّل ما جُهر به من القرآن في مكّة على لسان عبد الله بن مسعود¹⁰. ووجه الإشكال هنا أنّ المصادر القديمة التي أطلعنا عليها مختلفة اختلافاً بيّناً لا في شأن ترتيب هذه السورة فحسب، وإنّما أيضاً في تحديد كونها مكّيّة أو مدنيّة. فاللافت للنظر أنّ السيوطي عقد فصلاً "في تحرير السور المختلف فيها" ويقول في شأن سورة الرحمان: "الجمهور على أنّها مكّيّة، وهو الصواب"¹¹، ولكنّه لا يورد أيّة رواية في القوائم التي أثبتّها في كتابه تؤكّد أنّها مكّيّة، بما في ذلك رواية ابن عبّاس الذي يروي عنه أنّها مدنيّة. وابن عبّاس نفسه يروي عنه الشهرستاني قائمة أخرى كانت فيها السورة مكّيّة، وهو ما رواه الشهرستاني أيضاً عن رجال مقاتل، الذي

⁸- ابن إسحاق، السيرة، تحقيق وتعليق محمّد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، الرباط، 1976

⁹- الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن، بيروت، دار الفكر، 2001/1421، م3، ج4، ص ص 52-53

¹⁰- سيرة ابن إسحاق، ص 166

¹¹- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص 17

يروى عن عليّ أنّ السورة مدنيّة، وكذا روي عن جعفر الصادق في المصدر نفسه¹²، وهي مدنيّة أيضا في المصحف وفي رواية الزهري. أمّا في رواية ابن النديم، فسورة الرحمان مكّيّة¹³.

إنّ ما نذهب إليه أنّ ترتيب مثل هذه السورة المختلف في شأنها، يعود بالأساس إلى اهتمامات المصنّفين الذين يرّجّحون، وبصورة طبيعيّة، ما هو أقرب إلى مشاغلهم، فإذا غلبت السيرة على اهتمام مصنّف ما ذهب إلى أنّها مكّيّة لارتباطها بما يروى من شأن ابن مسعود، وإذا غلبت الأحكام مال المصنّف إلى أنّها مدنيّة استنادا إلى بعض ما يسمّى آيات الأحكام المقترنة عادة بالقرآن المدنيّ.

يبقى مثل هذا الأمر في مجال الافتراضات، وللباحث أن يفترض، كما أنّه يبقى مفهوما ومقبولا بالنسبة إلى المسلمين القدامى من عدّة أوجه، فقدّموا ترتيبات "تاريخيّة" وفق مشاغلهم وتمثّلاتهم وعقائدهم وما سطرّوه من أحكام، ليبقى الإشكال الأكبر مع الدراسات الحديثة والمعاصرة التي سعت إلى ترتيب القرآن تاريخيا، وهي دراسات نحاول هنا النظر في جوانب منها.

محاولات الاستشراق:

يُعدّ كتاب "تاريخ القرآن" لتيودور نولدكه (Theodor Nöldeke) الصادر سنة 1860 نقطة البداية للدراسات الاستشراقية الكلاسيكية في مجال الدراسات القرآنية. وقد عدّل الكتاب وأكمله كلّ من فريديريش شفالي (Friedrich Schawally) سنة 1909 فيما يتعلّق بالجزء الأوّل والثاني الذي عدّله أوغوست فيشر (August Fischer) وظهر سنة 1919. وأضاف كلّ من غوتهلّف برغشترسر (Gotthelf Bergsträßer) وأوتو بريتل (Otto Pretzl) جزءا ثالثا صدر سنة 1938. وأهمّ جزء من هذه الأجزاء بالنسبة إلينا يبقى الجزء الأوّل الذي أنجزه نولدكه، باعتبار تعلّقه المباشر بموضوع بحثنا؛ فهو الجزء الذي اقترح فيه ترتيبا تاريخيا للقرآن. ولعلّه من المهمّ هنا التذكير بأنّ النواة الأصليّة لعمل نولدكه بحث آخر قدّمه هو نفسه سنة 1856 خصّصه بالكلية لمسألة الترتيب التاريخي للقرآن مستندا إلى بحث سابق أنجزه غوستاف فايل (Gustav Weil) سنة 1844. وأهمّ ما جاء في عمل فايل تقسيم سور القرآن تاريخيا إلى أربع فترات، ثلاث منها مكّيّة وواحدة مدنيّة، غير أنّه لم يرتّب السور المكّيّة ترتيبا داخليا دقيقا، ولم يقدّم بذلك إلاّ مع السور الثلاث والعشرين التي اعتبرها مدنيّة. أمّا السور المكّيّة وعددها إحدى وتسعون سورة، فاكتفى بتوزيعها على ثلاث فترات ومردّد ذلك، في نظر فايل، عدم إمكانية التعرّف بدقّة على مراحل تطوّر الدعوة المحمّديّة قبل الهجرة إلى المدينة. وهذا الأمر مرتبط منهجيا في نظر فايل، مثله في ذلك مثل المستشرقين الكلاسيكيين، أنّ القرآن لا يمكن فهمه إلاّ من

12- الشهرستاني، مفتاح الأسرار ومصابيح الأنوار، حقّقه محمّد عليّ أذرشب، لندن، 2009، ص ص 18-23

13- ترتيب سورة الرحمان حسب النزول في المصحف ولدى الزهري 97 وفي رواية السيوطي عن ابن عباس 95، فهي مدنيّة، أمّا لدى ابن النديم فهي مكّيّة وترتيبها 35. ولكن من اللافت للنظر أنّ السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص 17

خلال علاقته بسيرة النبيّ. ولئن اعتبرنا هذه النظرة منهجيّة بالأساس، فإنّها متعلّقة أيضا بعوامل أخرى أهمّها ما توفّر لفایل في عهده من مصادر إسلاميّة، فقد اعتمد في المقام الأوّل في ترتيبه على قائمة وجدّها في مخطوط في السيرة، وهو مخطوط كتاب "تاريخ الخميس في أحوال أنفوس نفيس" للديابكري، ويبدو أنّ هذا المصدر، كما لاحظت ذلك إيمانويل ستيفاناديس¹⁴ (Emmanuelle Stefanidis) كان المصدر المعروف الوحيد المشتمل على قائمة في الترتيب التاريخي للقرآن. ولكن ينبغي أن نلاحظ أيضا أنّ هدف فيل نفسه لم يكن تقديم ترتيب تاريخي لسور القرآن، وإنّما عنوان كتابه كان يدلّ على أنّه في السيرة النبويّة، فقد كان العنوان "محمّد النبيّ" (*Mohammed der Prophet*). لقد كان الهاجس إذن، معرفة السيرة انطلاقا من القرآن وتطوّره.

إنّ ما أضافه نولدكه إلى ما اقترحه فيل يتلخّص في أمرين أساسيين؛ الأمر الأوّل يمسّ محاولة نولدكه ترتيب كلّ سور القرآن ترتيبا تاريخيا بما في ذلك السور المكّيّة، ولكن مع الاحتفاظ بتقسيم فيل لها إلى ثلاث فترات كبرى: مكّيّة أولى، ومكّيّة ثانية، ومكّيّة ثالثة. ثمّ يرتّب السور المدنيّة. أمّا الأمر الثاني، فيتعلّق بمستندات الترتيب التاريخي، فلئن اعتمد فيل بالأساس على السيرة، فإنّ الإضافة الحقيقيّة تبقى إلحاح نولدكه على ضرورة الأخذ بعين الاعتبار النواحي الفيلولوجيّة والأسلوبية في النصّ القرآني ذاته. هذا إضافة إلى الانتباه إلى المسائل النفسيّة والشعوريّة التي تعكسها لغة القرآن وأساليبه، وأهمّ هذه المسائل حديث نولدكه عمّا أسماه "الحماس النبوي".

ربّما علينا أن نلاحظ قبل التعرّض بتفصيل أوفى إلى هذين الأمرين أن نشير إلى أنّ نواة كتاب "تاريخ القرآن" التي أشرنا إليها سابقا؛ أي البحث المقدم سنة 1856، لم يكن الغرض منه ترتيب القرآن تاريخيا، بل البحث في سيرة النبيّ وتطوّرها، وهو موضوع المسابقة التي قدّم في إطارها نولدكه بحثه لنيل جائزة أكاديميّة الفنون الجميلة بباريس. ومثل هذه الملاحظة تدلّ على انخراط نولدكه في التقليد الاستشراقي السائد في منتصف القرن التاسع عشر الذي يرى أنّ القرآن مصدر لمعرفة السيرة التي مثّلت الشغل الأوّل، فكان القرآن تبعاً لذلك الوثيقة الأهمّ لمعرفة حياة النبيّ وتطوّرها. وفي هذا السياق تحديدا، يمكننا فهم ما قرّره مثل إيرنست رينان، أحد أعضاء لجنة تحكيم المسابقة التي شارك فيها نولدكه، حين اعتبر أنّ "المعلم الحقيقي لتاريخ الإسلام المبكّر: القرآن، يبقى معلما غير قابل للطعن مطلقا، وكافيا وحده دون كتابات المؤرّخين، ليكشف لنا عن محمّد".¹⁵ إنّ الغاية إذن، ليست القرآن أو تاريخه، بل اكتشاف نبيّ الإسلام وتطوّر دعوته وملاحح سيرته ومصادر معرفته.

¹⁴ Emmanuelle Stefanidis, "The Qur'an Made Linear: A Study of the *Geschichte des Qorans'* Chronological Reordering", in *Journal of Qur'anic Studies*, vol X, Issue II, (2008), pp 1-22 (p2).

¹⁵ "Le véritable monument de l'histoire primitive de l'islamisme, le Coran, reste d'ailleurs absolument inattaquable, et ce monument suffirait à lui seul, indépendamment des récits des historiens, pour nous révéler Mahomet", E. Renan, "Mahomet et les origines de l'islamisme", in *Etudes d'histoire religieuse*, Paris, Gallimard, 1992, pp 168- 220, (174).

ونشير أنّ عمل رينان "محمّد وأصول الإسلام" في الأصل مقال نشر سنة 1851

ولا نحسب أنّ منطلق نولدكه مختلف عن مشاغل مؤرّخي أوربّا الوضعيين في القرن التاسع عشر، ولا أدلّ على ذلك من القسم الطويل الذي خصّصه، وهو يبحث في "أصل القرآن" للسيرة وافتتح به كتاب "تاريخ القرآن" الذي سيديشنّ عصرا جديدا في تاريخ "الدراسات القرآنية".

لقد توفّرت لنولدكه مجموعة ضخمة من المخطوطات الإسلامية لم تتوفّر لسلفه فايل بفضل ما استفدناه ألويس شبرنغر (Aloys Sprenger) سنة 1856 من مخطوطات، وخاصة مخطوطات كتب السيرة والتاريخ والحديث النبوي. لقد كان اعتماد نولدكه على هذه المصادر كبيرا، رغم حذره من الروايات والأخبار الواردة فيها، والواضح من مقدماته أنّه أخذ بعين الاعتبار تأخّر تلك الأخبار، وكذلك وقف على ما بينها من تضارب وعدم دقّة وخاصة حين يتعلّق الأمر بالقرآن المكي.¹⁶

لعلّ هذا الاحتراز الذي كرّره نولدكه مرارا جعله يقدّم، وإن نظريّا، النصّ القرآني وأسلوبه ولغته على المصادر لتتبع تاريخ القرآن، ولعلّ اختصاصه الأوّل في دراسة اللغات السامية كان موجّها له في هذا التمشّي المنهجي. واستنادا إلى ذلك، وضع نولدكه معايير نظريّة لترتيبه، ويمكننا تلخيص تلك المعايير في ثلاثة، مع ملاحظة أنّنا سنقصر نظرنا هنا على ترتيبه للسور المكيّة:

- "الحماس النبوي": فقد اعتبر نولدكه أنّ الحماس معيار مهمّ لتحديد سور الفترة المكيّة الأولى فيقول: "أعتقد أنّه يسعني التعرّف على سور هذه الفترة بشيء من اليقين من خلال أسلوبها. إنّ قوّة الحماس الذي حرّك النبيّ في السنوات الأولى وجعله يرى الملائكة الذين أرسلهم الله إليه كان لا بدّ أن تعبّر عن نفسها في القرآن"¹⁷. وكلّما ابتعدنا عن الفترة الأولى ضعف ذلك الحماس، وتغيّرت اللغة والعبارة والأسلوب، وهذا يحيلنا على المعيار الثاني.

- "العبارات واللغة والأسلوب": ومن ذلك مثلا اعتباره أثناء تقسيمه للسور المكيّة إلى ثلاث مجموعات، أنّ "اختلاف الأسلوب يؤدّي بنا إلى التعرّف على مجموعات مختلفة من السور، يقارب بعضها البعض الآخر زمنيا. وتبرز بشكل خاصّ مجموعتان؛ تتألّف إحدهما من السور القديمة جيّاشة المشاعر، فيما تتألّف الأخرى من السور المتأخّرة التي كثيرا ما تقارب في أسلوبها السور المدنيّة. بين هاتين المجموعتين، نجد مجموعة أخرى هي مثل حلقة وصل بينهما، تنتقل بنا بانحدار تدريجيّ من المجموعة الأولى إلى الثالثة"¹⁸.

¹⁶- هذا ما ألحّ عليه نولدكه، حين شرع في البحث "في أصل أجزاء القرآن المفردة"، تاريخ القرآن، ص 53-54 إذ يقول مثلا: "إنّ المصدر الأوّل الذي سنعمد عليه هو النقل التاريخي والتفسيري، وهو يحوز أكبر قدر من الثقة حين يتعلّق بحوادث ذات أهميّة بالغة لتاريخ الإسلام. فلا شكّ مثلا أنّ سورة الأنفال 8 تتناول وقعة بدر وسورة الأحزاب 33 وقعة الخندق وسورة الفتح 48 صلح الحديبية. لكن عدد المعلومات الموثوق بها ليس كبيرا، وهي تقتصر عادة على السور المدنيّة فقط. فحين كان محمّد في مكة، حيث لم تصدر عنه أحداث تاريخيّة كبرى، لم يشارك أيا في مثل هذه. قدر أكبر من الشكّ بطل الكثير من الأحاديث المرويّة التي يسوقها المؤرّخون والمفسرون حول مختلف الوقائع الصغيرة من أجل تفسير آيات مفردة".

¹⁷- نولدكه، تاريخ القرآن، ص 68

¹⁸- نولدكه، تاريخ القرآن، ص 66

- "قصر الآيات وطولها": وحسب هذا المعيار يذهب نولدكه إلى اعتبار أنّ السور الأولى تشكّلت من آيات قصيرة "تعكس الحركة الشغوفة التي تنتقطع مرارا بسبب تعاليم بسيطة وهادئة، لكنّها زاخرة بالقوّة، والكلام بأسره محرّكٌ إيقاعيًا وذو جرس عفويّ جميل. مشاعر النبيّ وظنونه تنطق عن نفسها أحيانا بواسطة غموض المعنى الذي يلمّح إليه بالإجمال أكثر ممّا يُستفاض في شرحه"¹⁹.

لقد قلنا إنّ هذه المعايير نظريّة، وكان هذا مقصودا، حاملا بذور الشكّ في اعتمادها في ترتيب سور القرآن ترتيبا تاريخيا. وبداية يمكن أن نلاحظ أنّ المعيارين الثاني والثالث هما نتيجة للمعيار الأول في حقيقة الأمر؛ فاستعمال الجمل القصيرة والعبارات القويّة المكثّفة مرتبط أساسا بالشعور النفسي أو بما وسمه نولدكه "الحماس"، ونحسب أنّ الشعور أعلق بشخصيّة النبيّ أكثر من تعلّقه بالنصّ ذاته، ممّا يعني أنّ المسألة، وإن بدت في الظاهر منطلقة من النصّ، فإنّها في الحقيقة انعكاس لتصور حالة النبيّ النفسيّة وردود أفعاله. وحتىّ الإيحاء بالانطلاق من تحليل النصّ عبر معالجة ألفاظه ولغته، فإنّه في نهاية المطاف بقي رهين تصوّر مخصوص لتطوّر السيرة وللظروف التي مرّ بها النبيّ من فترة إلى أخرى. وهذا الأمر بدا لنا واضحا في كثير من الأحيان، ويمكن أن نورد هنا مثلا واحدا يتعلّق بالانتقال من سور الفترة المكيّة الأولى إلى الفترة المكيّة الثانية.

بعد أن لاحظ نولدكه أنّه في سورة الفترة المكيّة الثانية قد تمّ "الانتقال من الحماس العظيم إلى قدر أكبر من السكينة في السور المتأخّرة التي يغلب عليها الطابع النثري"، فإنّه ناقش أسباب هذا التحوّل في اللغة ووافق غوستاف فايل في اعتبار أنّ "الحماس الأوّلي خفتت حدّته بسبب إحباطات الواقع. التكرار المستمرّ للأفكار نفسها التي كانت تسقط مرّة إثر مرّة على أرض غير خصبة أثر سلبا على الشكل الفنّي للعرض"²⁰.

ما يمكن استنتاجه أنّ السيرة عادت لفرض نفسها على البحث، رغم كلّ الاحترازاات على الأخبار، بل تتعدّد المسألة، فيصبح القرآن مصدرا لمعرفة السيرة، وفي الوقت نفسه تكون السيرة مصدرا لمعرفة تاريخ القرآن. وهنا لم يجد نولدكه بداً من الاعتماد على السيرة كما جاءت في المصادر الإسلاميّة لبناء ترتيب تاريخي للقرآن. وقد بدا هذا جليا مثلا حين تمّت مناقشة أوّل ما نزل من القرآن؛ فنولدكه يعارض ما ذهب إليه موير (Muir) الذي اعتبر أنّ هناك ثماني عشرة سورة قد نزلت قبل سورة العلق 96 التي كانت منطلق البعثة، والمهمّ هنا تعليق نولدكه على هذا الاعتبار، إذ يقول: "لا نجد في رأي موير على الأقلّ ما قد يدفعنا إلى التخلّي عن الرواية

¹⁹- نولدكه، تاريخ القرآن، ص 69

²⁰- نولدكه، تاريخ القرآن، ص 105. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ نولدكه، وإن تبوّى هنا رأي فايل، فإنّه لم يكن موافقا تماما على رأي سابق له، لتبرير هذا التحوّل، فيقول في الموضوع نفسه: "ويرى فايل أنّ أحد أهمّ أسباب هذا التعديل الأسلوبي هو سعي محمّد إلى تعطيل الشكّ بأنّه شاعر أو كاهن. لكن هذا القول لا يمكن الرهان عليه إلا قليلا، لأنّ ذلك الانتقال لم يحصل فجأة، كما عن نيّة واعية، بل تمّ تدريجا. يضاف إلى ذلك أنّ محمّدا ظلّ أيضا في سور متأخرة يشكو من هذه الاتهامات".

المتعارف عليها لدى المسلمين ومفادها أنّ سورة العلق 1/96-5 أقدم ما في القرآن، وأنها تتضمن أول دعوة تلقاها محمد للنبوّة²¹.

كانت أخبار السيرة إذن حجة نولدكه للنقاش والترتيب على حدّ السواء؛ فقد تبنى لاحقا الرواية الإسلامية السائدة التي تعتبر آيات سورة العلق الأولى أول ما نزل من القرآن. وهنا تخلى نولدكه عن أهمّ مقياس لديه ونقصد الحماس النبوي. خاصّة إذا ما قورن مطلع السورة المذكورة بسور أخرى يتجلّى فيها حماس أكبر بكثير. والحقيقة أنّ نولدكه نفسه لا ينكر ذلك، إذ يقول: "ما إذا كانت الآيات 1-5 من سورة العلق 96 بالفعل أول ما نزل من القرآن فمسألة لا يمكن حسمها، حتّى لو نسبت لهذه الآيات أهميّة أساسيّة في قصّة الوحي بسبب حثّها الشديد على القراءة، فإنّ النصّ لا يتضمّن ما يدعم التقدير التاريخي الذي يأتي به التراث"²². وقريب من هذا ما ذهب إليه نولدكه من وضع سورة المسد 111 في الرتبة الثالثة تاريخيا، وقبلها سورة المدثر 74 في الرتبة الثانية، وقد كان في كلّ ذلك متأثرا بالروايات الإسلامية في المقام الأول.

إنّ ما رمنا تأكيده، أنّ المعيار الحقيقي لدى نولدكه كان السيرة في كثير من الأحيان، ولم يكن النصّ القرآني؛ فمعاييره الثلاثة كانت نظريّة فقط، ولو أخذنا تلك المعايير وطبقناها كما هي مثلا على سورة النصر 110 لكانت هذه السورة من أوائل ما نزل نظرا إلى ما فيها من حماس ولغة مكثّفة وآيات قصيرة، غير أنّ نولدكه تخلى في ترتيب السورة عن معاييره لفائدة السيرة، ويقترّب من ترتيبات المسلمين القدامى، فتحتلّ سورة النصر عنده الرتبة 111 استنادا إلى اقترانها في التصور الإسلامي بفتح مكّة. يقول نولدكه: "إنّ هذه السورة" التي تبدو وكأنّها قطعة مأخوذة من نصّ أكبر، توجد في القرآن بين سور مكّيّة، ما دفع البعض إلى اعتبارها واحدة منها. إلا أنّ اليقين المتفائل بأنّ الناس ستدخل في الدين الحقّ أفواجا يؤيّد بالأحرى كون السورة مدنيّة متأخرة. بالمقابل ليس أكيدا ما إذا كانت كلمتا "النصر" و"الفتح" (في الآية الأولى) تعنيان فعلا احتلال مكّة ويقاربان هذا الحدث زمنيا كما تذكر غالبية الروايات. وبعضهم يذهب إلى أبعد من ذلك فيجعل السورة تعلن عن دنوّ أجل النبيّ أو يفيد أنّها آخر ما نزل"²³.

ما يلاحظ إذن، أنّه رغم كلّ الاحترازاات من الروايات الإسلامية، فإنّ نولدكه سايرها في نهاية المطاف، وجعل من سورة النصر من أواخر ما نزل من القرآن استنادا إلى قرينة نفسيّة لخصّها في ما أسماه "اليقين المتفائل"، والحقيقة أنّ مثل هذا الشعور قد يفهم غيره من قبيل إمكانيّة أن نفهم من السورة أنّها طمأنة للنبيّ وتثبيت له، ممّا يجعلها أقرب إلى السور الأولى التي نلمس فيها إلحاحا على هذا المعنى. ثمّ إنّ التركيب

²¹- نولدكه، تاريخ القرآن، ص 71

²²- نولدكه، تاريخ القرآن، ص 75

²³- نولدكه، تاريخ القرآن، ص 197

الشرطيّ في السورة لا يوحي بزمن قريب أو بعيد من فتح مكّة، ولا يبرّر إرجاء ترتيب السورة إلى آخر حياة النبيّ.

هذا التركيب الشرطيّ المشار إليه، تنبّه إليه مستشرق آخر سعى إلى ترتيب القرآن ترتيباً تاريخياً معتمداً على ترتيب نولدكه مع تعديله، ونقصد ريجيس بلاشير (Régis Blachère)، وقد لاحظ مثلاً أنّ ترتيب نولدكه متأثر بالسيرة لا بالمعايير التي وضعها، ومن الأمثلة التي قدّمها كانت سورة النصر التي يعتبرها نوعاً من البشارة. وعلى هذا الأساس، كانت ترجمته للسورة بجعل الأفعال الفرنسيّة في السورة في الزمن المستقبل.²⁴ وقد كان واعياً أنّ الفعلين "جاء" و"رأيت" كانا مسبقين بأداة الشرط "إذا"، ممّا يعني أنّ السورة تتحدّث عن المستقبل لا عن الماضي، ممّا يتيح إمكانية القول إنّها متقدّمة تاريخياً. ولكن رغم ذلك، ورغم احتراز بلاشير من الروايات التاريخيّة الإسلاميّة، فإنّه في نهاية المطاف يضع سورة النصر في الرتبة 113 من حيث تاريخ النزول بعد أن كانت 111 عند نولدكه، ليقترّب من ترتيب مصحف القاهرة إذ كان ترتيب السورة فيه 114؛ أي الأخيرة. لقد أكّد بلاشير على وجوب التخلّي عن فكرة ترتيب سور القرآن بالاعتماد على السيرة النبويّة، لكنّه لم يلبث أن أكّد من جهة أخرى، أنّ القرآن يمثّل انعكاساً لتعاليم النبيّ الدينيّة التي يتابعها من خلال الروايات، لنعود مرّة أخرى إلى الحلقة المفرغة: اعتماد القرآن لمعرفة تطوّر حياة النبيّ، واعتماد السيرة للوقوف على الترتيب التاريخي للقرآن.

وتجدر الملاحظة أيضاً، أنّ الاختلاف الأساسي بين نولدكه وبلاشير كان متعلّقاً بالسور المكّيّة لا المدنيّة، ونحسب أنّ الاختلاف يعود إلى ترجيح روايات على أخرى فيما يتعلّق بالفترة المكّيّة لا إلى استقراء لمضمون النصّ وأسلوبه، ذلك أنّ الروايات الإسلاميّة متضاربة كثيراً فيما يتعلّق بأحداث ما قبل الهجرة لتتّجه نحو الاتفاق بعدها، وهو ما حصل تماماً بالنسبة إلى الترتيب الاستشراقي.

والحقيقة أنّنا لا نروم هنا تتبّع كلّ محاولات الترتيب التاريخي للقرآن، سواء تلك التي سبقت محاولة نولدكه، مثل ترتيب موير (Muir)²⁵، أو تلك التي لحقتها، مثل ترتيب ريتشارد بيل (Richard Bell) الذي نقد فايل ونولدكه ولكنّه بقي معتمداً على روايات السيرة.²⁶ ولكن ما أردنا الإشارة إليه بالإضافة إلى اعتماد هذه الترتيبات وغيرها على روايات السيرة، فإنّ محاولات الترتيب المذكورة لم تتخلّ عن قاعدة اعتبار السورة وحدة في الترتيب، رغم الوعي بالتداخل بين المكّي والمدني، والآيات المتباعدة زمنياً في السورة الواحدة، وهو وعي كان موجوداً لدى المسلمين القدامى ولكنهم ركّزوا مقولة التوقيف في ترتيب الآيات داخل السورة الواحدة،

²⁴ - Régis Blachère, *Le Coran*, Paris, 1957, p 669

²⁵ - ورد هذا الترتيب في: *The Coran*, London, 1878, pp 43- 47.

²⁶ - Andrew Rippin, "Literary analysis of Qur'an, *tafsir* and *sira*: The methodologies of John Wansbrough" in R.C. Marrin (éd), *Approaches to Islam in Religious Studies*, University of Arizona Press, 1985, p158

وهي مقولة ارتقت أحيانا إلى مرتبة العقيدة. ولئن كان هذا مفهوما بالنسبة إلى المسلمين، فإنّه يبقى في حاجة إلى نقاش بالنسبة إلى الدرس الاستشراقي الذي لم يتخلّ عن هذه القاعدة إلا في مناسبات قليلة أبرزها ترتيب فريد قدّمه هيرشفيلد (Hirschfeld) وقد سعى إلى ترتيب القرآن المكيّ إلى ستّة أصناف من الوحي هي: البلاغ الأوّل، واقتصر فيه على الآيات الخمس الأولى من سورة العلق 96، ثمّ الوحي التثبتي، يليه الوحي الانفعالي أو الحماسي، ثمّ الوحي القصصي، ثمّ الوحي الوصفي، ثمّ الوحي التشريعي. وبعد ذلك يأتي القرآن المدني، ليترك عددا من المقاطع القرآنية المستعصية على الترتيب. والملاحظ أنّ هيرشفيلد لم يعتمد السورة وحدةً للترتيب، بل اعتمد مقاطع وأجزاء من السور²⁷، ويمكن تلخيص ما قدّمه كما يلي:

*- الوحي المكيّ:

1. البلاغ الأوّل: العلق 96 / 1- 5

2. الوحي التثبتي: الأعلى 87، القلم 68 / 1- 33؛ الإخلاص 112؛ الحاقة 69 / 40- 52؛ الشعراء 26 / 221- 228؛ الطور 52 / 29- 49؛ المدثر 74 / 1- 30، 35- 55؛ المزمل 73 / 1- 14؛ الإنسان 76؛ الشرح 94؛ العلق 96 / 6- 19؛ المسد 111؛ الهزّة 104؛ النازعات 79 / 15- 26؛ النجم 53 / 1- 18، 24- 62؛ الضحى 93 / 1- 8؛ الكافرون 109.

3. الوحي الانفعالي أو الحماسي: التكوير 81؛ الانفطار 82؛ الانشقاق 84؛ الزلزلة 99؛ عبس 80؛ الطارق 86؛ القيامة 75؛ المطففين 83؛ الغاشية 88؛ النازعات 79 / 1- 14؛ المرسلات 77؛ الحاقة 69 / 1- 39؛ النبأ 78؛ الواقعة 56؛ الطور 52 / 1- 28؛ المعارج 70؛ العاديات 100؛ القارعة 101؛ قريش 106؛ الماعون 107؛ الكوثر 108؛ البلد 90؛ الليل 92؛ الشمس 91؛ الفيل 105؛ التكاثر 102؛ القدر 97؛ البيّنة 98؛ الفجر 89؛ الجنّ 72؛ البروج 85 / 1- 8؛ 12- 22؛ العصر 103؛ التين 95.

4. الوحي القصصي: القلم 68 / 34- 52؛ الذاريات 51؛ الشعراء 26 / 1- 220؛ القمر 54؛ الصافات 37؛ الدخان 44؛ ص 38؛ النمل 27 / 1- 59؛ القصص 28؛ الحجر 15؛ الكهف 18؛ يوسف 12؛ مريم 19؛ الزخرف 43 / 25- 89؛ الأنبياء 21؛ إبراهيم 14؛ طه 20؛ هود 11؛ سبأ 34؛ الأعراف 7 / 1- 27، 57- 155، 186- 205؛ الإسراء 17 / 1- 8؛ 103- 111؛ المزمل 73 / 15- 19؛ غافر 40 / 1- 6، 24، 57؛ العنكبوت 29 / 13- 42؛ يونس 10 / 72- 109؛ المؤمنون 23 / 23- 52؛ الأحقاف 46 / 20- 35؛ المائدة 5 / 23- 38، 109- 120؛ البقرة 2 / 200- 210؛ الأنعام 6 / 74- 91؛ الفاتحة 1.

²⁷- *New researches into the composition and exegesis of the qoran*, London, 1902, pp 143 145

5. الوحي الوصفي: النزاعات 79/ 27- 46؛ نوح 71؛ الرحمان 55؛ ق 50؛ الجاثية 45؛ الشورى 42؛ فصلت 41؛ فاطر 35؛ السجدة 32؛ الملك 67؛ الفرقان 25/ 1- 63؛ المؤمنون 23/ 1- 22، 53- 118؛ النحل 16/ 1- 115؛ الزخرف 43/ 1- 24؛ الرعد 13؛ الفلق 113؛ الناس 114؛ يونس 10/ 1- 57؛ 58- 71؛ لقمان 31/ 1- 10؛ 19- 34؛ يس 36؛ النمل 27/ 60- 95؛ الروم 30؛ الزمر 39؛ الحجّ 22/ 1- 13؛ 62- 71؛ غافر 40/ 7- 23؛ 58- 85؛ البقرة 2/ 158- 162؛ العنكبوت 29/ 43- 69؛ الإسراء 17/ 87- 102؛ الأنعام 6/ 92- 117.

6. الوحي التشريعي: الأنعام 6/ 1- 45، 46- 73؛ الضحى 93/ 9- 11؛ الفرقان 25/ 64- 72؛ لقمان 31/ 11- 18؛ الأعراف 7/ 28- 56؛ العنكبوت 29/ 1- 12؛ الأحقاف 46/ 1- 19؛ الإسراء 17/ 9- 86؛ الأنعام 6/ 152- 165؛ التوبة 9/ 129- 130؛ البروج 85/ 9- 11.

*- الوحي المدني:

البقرة 2/ 1- 19 (أ)؛ البقرة 2/ 19 (ب)؛ البقرة 2/ 37- 38؛ البقرة 2/ 58؛ المائدة 5/ 71- 88؛ البقرة 2/ 60- 97؛ البقرة 2/ 98- 115؛ البقرة 2/ 116- 147؛ البقرة 2/ 168- 184؛ البقرة 2/ 211- 228؛ البقرة 2/ 244- 268؛ البقرة 2/ 269- 281؛ الأنفال 8/ 1- 41 (بعد بدر)؛ الأنفال 8/ 42- 76؛ آل عمران 3/ 1- 29؛ آل عمران 3/ 30- 75؛ آل عمران 3/ 76- 90؛ محمّد 47؛ آل عمران 3/ 91- 113؛ آل عمران 3/ 114- 137، 139- 200؛ الحديد 57؛ الأعراف 7/ 174- 185؛ الحشر 59؛ الصفّ 61؛ الجمعة 62؛ النحل 16/ 116- 128؛ التغابن 64؛ النساء 4/ 1- 45؛ النساء 4/ 126- 129؛ النساء 4/ 46- 72؛ النساء 4/ 73- 86 (بعد أحد)؛ البقرة 2/ 148- 157؛ البقرة 2/ 87- 95؛ المائدة 5/ 56- 63؛ البقرة 2/ 282- 284؛ النساء 4/ 96- 105 (4 هـ)؛ النساء 4/ 106- 125؛ الطلاق 65؛ النور 24؛ التحريم 66؛ المنافقون 63؛ المجادلة 58؛ الحجّ 22/ 14- 61 (6 هـ)؛ الحجّ 22/ 72- 78؛ المائدة 5/ 39- 44 (7 هـ)؛ البقرة 2/ 285- 286؛ الفتح 48/ 18- 28؛ البقرة 2/ 185- 196 (أ)؛ 196 (ب)؛ 199 (8 هـ)؛ النساء 130- 138؛ 139؛ النساء 4/ 140- 145؛ النساء 4/ 146- 151؛ النساء 4/ 152- 176؛ الأحزاب 33 (5 هـ)؛ البقرة 2/ 224- 243؛ الممتحنة 60؛ النصر 110؛ الحجرات 49 (9 هـ)؛ التوبة 9/ 23- 27؛ التوبة 9/ 38- 73؛ الفتح 48/ 1- 17؛ التوبة 9/ 74- 94 (10 هـ)؛ التوبة 9/ 120- 128؛ التوبة 9/ 95- 119؛ التوبة 9/ 1- 12؛ التوبة 9/ 36- 37؛ التوبة 9/ 13- 22؛ التوبة 9/ 28- 35؛ الأعراف 7/ 156- 172؛ المائدة 5/ 1- 4؛ المائدة 5/ 5- 7؛ المائدة 5/ 8- 14؛ المائدة 5/ 15- 17؛ المائدة 5/ 109- 120؛ المائدة 5/ 18- 22؛ المائدة 5/ 45- 55؛ المائدة 5/ 64- 70؛ المائدة 5/ 89- 104؛ المائدة 5/ 105- 108؛ الأنعام 6/ 117- 151؛ المزمّل 73/ 20؛ المدّثر 74/ 31- 34.

الآيات غير المرتبة:

النجم 53/19 - 23؛ آل عمران 3/138؛ الأحزاب 33/40؛ محمد 47/2؛ الفتح 48/29؛ الصف 61/6؛
المائدة 5/73؛ المائدة 5/101.

لقد عرضنا هنا ترتيب هيرشفيلد نظرا إلى محاولته التخلي عن وحدة السورة، وذلك على عكس التقليدين الإسلامي والاستشراقي على حدّ سواء، ونقول ذلك رغم أنّ نولدكه مثلا أثناء ترتيبه قد أشار في معظم السور إلى أقسام من السور، قد تكون متقدمة أو متأخرة عن مطالع السور بالخصوص. ولكن لا يفوتنا هنا التنبيه إلى أنّه رغم الاختلافات البينة بين ترتيب المستشرقين، فإنّه من الواضح أنّ هيرشفيلد، قد أخذ بعين الاعتبار ملاحظات نولدكه فيما يتعلّق بتأخّر بعض مقاطع السور عن مقاطع أخرى في نفس السورة.

من جهة أخرى، فإنّ ما قدّمه هيرشفيلد لم يتجاوز كونه تصريحا بما وعى به كلّ المستشرقين تقريبا، ونقصد الوعي بتداخل مقاطع تنتمي إلى فترات تاريخية متباعدة إلى سورة واحدة. ورغم هذا الوعي، فإنّهم لم يقوموا بالتفصيل معتبرين ذلك تفتينا للمصحف، بل إنّ بالإضافة إلى ذلك فإنّ بلاشير مثلا يعتبر عمل هيرشفيلد غير مجد، ولا يبتعد عن ذلك نقد ويليام مونتغمري واط (William Montgomery Watt) لمحاولة ريتشارد بيل.²⁸

إنّ ما اقترحه هيرشفيلد لا يعدو أن يكون، في نهاية المطاف، ضربا من التصنيف الموضوعي للقرآن يُبنى عليه ترتيب تاريخي، فيكون بذلك موافقا إلى حدّ كبير تصوّرنا معيّنا لسيرة النبيّ وفق ما تقدّمه الروايات الإسلامية. ونحسب أنّ المزج بين المحافظة على وحدة السورة والتصنيف الموضوعي سينتج عنه محاولات ترتيب أخرى، ستبرز في محاولات المسلمين المعاصرين وخاصة في ما قدّمه محمد عبد الجابري.

المسلمون المعاصرون والترتيب التاريخي للقرآن:

كثيرا ما يُشار إلى محمد عزّت دروزة وكتابه "التفسير الحديث" الصادر لأوّل مرّة في القاهرة سنة 1964، واعتبار أنّه قدّم محاولة في ترتيب سور القرآن تاريخيا، غير أنّنا لن نقف عند هذا الكتاب كثيرا، فما قدّمه دروزة لا يعدو أن يكون تبنيّا لما جاء في ترتيب مصحف القاهرة مع تقديمه لسورة الفاتحة إلى الرتبة الأولى، لاعتبارات إيمانية تمجيدية لا لاعتبارات تاريخية. ولذلك، لا نعدّها محاولة في الترتيب، وإنّما هي محاولة للتفسير وفق ترتيب النزول الذي أقرّه الأزهري.

²⁸- Gabriel Said Reynolds, "Le Problème de la chronologie du Coran" in *Arabica* 58, (2011), pp 477-502, (p493)

ويمكن القول، إنّ إشارات محمّد الطاهر بن عاشور في تفسيره "التحرير والتنوير" التي يقدّم بها لكلّ سورة، تدلّ على وعي كبير بإشكاليّات الترتيب التاريخي للقرآن، رغم عدم تقديمه لترتيب خاصّ به واكتفائه في الحقيقة بالترجيح بين روايات القدامى. وقد كان ابن عاشور واعياً بإمكانية تزامن سور مختلفة، ويحاول فضّ هذه المسألة بتقديم فهم جديد لعبارة القدامى "سورة كذا نزلت بعد سورة كذا" ومفاد ما اقترحه أنّ المقصود ابتداء نزول السورة الأولى، وليس نزول السورة برمتها، وهذا ما عبّر عنه بمناسبة تعرّضه لسورة آل عمران وترتيبها بالنسبة إلى سورة البقرة فقال: "وقد تقدّم القول في صدر سورة الفاتحة: إنّنا بينا إمكان تقارن نزول سور عدّة في مدّة واحدة، فليس معنى قولهم: نزلت سورة كذا بعد سورة كذا، مراداً منه أنّ المعدودة نازلة بعد أخرى، إنّما ابتدئ نزولها بعد ابتداء نزول التي سبقتها".²⁹ وقد تتبّعنا ترجيحات ابن عاشور وما قدّمه من ترتيب، فلاحظنا أنّ ذلك قائم بالأساس على ترجيح ما ورد في مرويات السيرة، بالإضافة إلى القول بالتوقيف في ترتيب الآيات داخل السورة الواحدة واعتبار ذلك من مظاهر الإعجاز، وفي هذا السياق يقول ابن عاشور في مقدّمته الثامنة: "وأما ترتيب الآي بعضها عقب بعض، فهو بتوقيف من النبيّ (ص) حسب نزول الوحي، ومن المعلوم أنّ القرآن نزل منجّماً آيات، فربّما نزلت عدّة آيات متتابعة أو سورة كاملة، كما سيأتي قريباً، وذلك الترتيب ممّا يدخل في وجوه إعجازه من بداعة أسلوبه، كما سيأتي في المقدّمة العاشرة، فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعيّناً، بحيث لو غير غير عنه إلى ترتيب آخر نزل عن حدّ الإعجاز الذي امتاز به".³⁰

كانت هذه ملاحظات سريعة حول عمليّن أثارا مسألة الترتيب التاريخي للقرآن، ولكنّنا سنحاول التعرّض بتفصيل أوفى لعمل ثالث لمحمّد عابد الجابري صدر في أربعة أجزاء، جزء أوّل جاء تحت عنوان "مدخل إلى القرآن الكريم" مع عنوان فرعيّ هو "في التعريف بالقرآن"³¹. وتلي هذا الجزء ثلاثة أجزاء في التفسير تحت عنوان "فهم القرآن الحكيم" مع عنوان فرعيّ هو "التفسير الواضح حسب ترتيب النزول".³²

ربّما علينا أن نلاحظ بداية أنّ المؤلّفات المذكورة هنا هي بالأساس كتب في التفسير، ممّا يدلّ صراحة أنّ الغاية ليست دراسة التطوّر التاريخي للقرآن أو ترتيبه تاريخياً، وإنّما فهمه وفق تطوّر معيّن عبّر عنه الجابري بالإعلان عن هدفه من ترتيبه بتحديد غاية بحثه، وهو "بناء تصوّر "منطقيّ" عن المسار التكويني للنصّ القرآني".³³

²⁹- محمّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، 1984، المجلّد 3، ص 144

³⁰- محمّد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، المجلّد 1، ص 79

³¹- صدر هذا الجزء الأوّل في طبعته الأولى سنة 2006، وتعتمد على طبعته الثانية لسنة 2007، والطبعتان صادرتان في الدار البيضاء عن دار النشر المغربية.

³²- صدرت الأجزاء الثلاثة بين سنتي 2008-2009 عن مركز دراسات الوحدة العربية.

³³- الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، ص 222

والحقيقة، أننا راغبون هنا عن سرد ترتيب الجابري المقترح الذي يمكن استخراجه من الأجزاء الثلاثة في التفسير، وأثرنا النظر في المستندات الأساسية التي قام عليها الترتيب ومناقشتها أكثر من أي شيء آخر. وتلك المستندات نجدها في الفصل العاشر من المدخل، وقد حمل الفصل عنوان "ترتيب المصحف وترتيب النزول"³⁴.

لن نبذل الكثير من الجهد لتتبيّن أنّ المعيار الأوّل، ويكاد يكون الوحيد الذي اعتمده الجابري، كان السيرة النبويّة، وهو المعيار الذي ما انفكّ يكرّره في صفحات الفصل. وهذا ما قرّره الجابري نفسه فيما يتعلّق بمحوريّة السيرة في ترتيبه:

- "إنّه لا أحد يستطيع أن يلخص القرآن كلّه في سطور، ولا في سورة من سوره. وهذا يرجع لا إلى كبر حجمه، بل إلى كونه نصّاً حيّاً، متموّجا مع تموّج وقائع السيرة النبويّة". (ص222)

- "وبالنسبة إلى موضوعنا الذي يتوخّى بناء تصوّر منطقي عن المسار التكويني للنصّ القرآني، وفي نفس الوقت أقرب إلى الواقع التاريخي، أعني لوقائع السيرة النبويّة، فإنّ ترتيب النزول المعتمد حالياً ضروريّ ولكنّه لا يكفي". (ص222)

- "والمواد التاريخيّة بالنسبة لموضوعنا تقدّمها المرويّات، وفي مقدّمها تلك التي تخصّ لوائح ترتيب النزول التي ذكرنا، إضافة إلى التي تتعلّق بأسباب النزول وبالسيرة النبويّة". (ص222)

- "ولمّا كان الهدف، عندنا، من الترتيب حسب النزول" هو التعرّف على المسار التكويني للنصّ القرآني، باعتماد مطابقته مع مسار الدعوة المحمّديّة، فإنّ دور المنطق أو الاجتهاد لا بدّ أن يكون مركزاً أساساً على المطابقة بين المسارين: مسار السيرة النبويّة والمسار التكويني القرآني". (ص223)

- "وبناء على ما تقدّم، يمكن تحديد المعايير التي لا بدّ من اعتبارها في أيّ ترتيب للنزول يريد أن يكون متساوقاً، بهذه الدرجة أو تلك، مع السيرة النبويّة..." (ص223)

لا نريد متابعة مثل هذا السرد المتكرّر الموضّح لمستندات الجابري في ترتيبه، وهو الروايات والسيرة، غير أنّ اللافت للنظر حقّاً مدى الاحتراز الكبير لدى الجابري من مخالفة روايات المسلمين القدامى فيما يتعلّق بترتيب نزول السور وغلبة التبرير الاحترازي فيما قدّمه، ونكتفي هنا بهذا الشاهد لوّاحد من أشهر من كتب من العرب المعاصرين في نقد العقل: "فإذا كانت هناك نتائج تخدم الغرض المتوخّى ولا تتعارض مع الأصول – وفي مقدّمها ترتيب الآيات داخل السورة الواحدة، وهو ترتيب توقيفيّ – فإنّه سيكون تصرفاً مقبولاً ومعقولاً.

³⁴- الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، ص ص 215-234

أما إذا لم تكن له مثل هذه النتائج، فلا شيء يبرّره حينئذ. وفي جميع الأحوال، ينبغي أن لا يؤدّي التصرّف في الترتيب المعتمد اليوم (عند الأزهر وغيره) إلّا فيما ورد فيه قول أو أقوال تبرّر تغيير موقعه من الترتيب. وقد رأينا كيف أنّ في اللائحة التي أوردتها السيوطي عن السور المختلف فيها، من حيث هي مكّيّة أو مدنيّة، مجال واسع للاجتهاد" (ص223)، ليقرّ صراحة أنّ معرفة السابق من السور والآيات واللاحق منها "لا يمكن استنباطه بالعقل وإنّما الاعتماد فيه على المرويّات". (ص222)

لقد شدّدنا في قول الجابري على ما يكشف احترازه الكبير من مخالفة روايات القدامى في شأن الترتيب التاريخي للقرآن، وهذا الأمر سيؤثّر حتما في ترتيبه ليصبح قريبا جدًا من الترتيب الإسلامي القديم، بل إنّه حتّى بالنسبة إلى السور التي خالف فيها الجابري الروايات فيما يتعلّق بتحديد هل هي مكّيّة أم مدنيّة، لم تتجاوز الخمس سور حولها الجابري من المدني إلى المكّي، وكانت تلك السور محلّ اختلاف بين القدامى أنفسهم، ونقصد سور الزلزلة والرحمان والإنسان والبيّنة³⁵ والحجّ. (ص224) واللافت للنظر أنّ المؤيّدات التي قدّمها كانت كلّها مؤيّدات نقلية، وما قام به الجابري لم يتعدّ ما دأب عليه الدرس التقليدي من ترجيح بين الروايات لا غير.

من جهة أخرى، لقد أوقع الاعتماد على الروايات المبنوثة في مصنّفات القدامى الجابري في عدد من التناقضات التي لا تفسّر إلّا بالتسليم وإيثار السلامة، ونقدّم هنا مثالا واحدا من أقوال الجابري نتجاوز به هذه النقطة، ونقدّمه في جدول تسهيلا للمقارنة:

<p>"ومن التصنيفات الأولى التي ترجع إلى زمن النبيّ عليه السلام تصنيف القرآن إلى قرآن مكّي؛ أي نزل بمكّة، وقرآن مدنيّ نزل بعد الهجرة في المدينة". (ص216)</p>	<p>"وهذا الاختلاف الكبير راجع إلى أنّ التمييز بين المكّي والمدني من السور لم يقع الاهتمام به إلّا في المائة الثانية للهجرة في عصر التدوين" (ص217)</p>
--	---

لو نظرنا الآن في ترتيب الجابري استنادا إلى ما قرّره من مستندات؛ أي السيرة والروايات، واقتصرنا في ذلك على الفترة المدنيّة، فإنّنا سنلاحظ بداية تبنّيه التام لتقسيم القدامى الدعوة في مكّة إلى خمس مراحل كبرى هي:

- المرحلة السريّة.
- بداية التعرّض للأصنام وبداية الصراع مع قريش.

35- من اللافت للنظر فيما يتعلّق بسورة البيّنة أنّ الجابري يرحّج في مقدّمته أنّها مكّيّة على عكس الروايات القديمة، لكنّه في التفسير يورد السورة ضمن السور المدنيّة، ويقول: " اختلفوا في مكان نزولها، هل كان بمكّة أم في المدينة، كما اختلفوا في تاريخ نزولها [...] وسنرى أنّ مضمونها يحتم كونها مدنيّة"، فهم القرآن الحكيم، القسم 3، ص 275

- التعرّض للأصنام واضطهاد قريش للمسلمين.
- حصار النبي وأهله.
- فكّ الحصار وعرض النبي نفسه على القبائل.

إنّ ما قدّمه الجابري هنا لا يختلف في شيء عن التّصوّر الذي قدّمه ابن سعد منذ القرن الثالث الهجري في طبقاته، لتحقيب الفترة المكيّة من الدعوة المحمّديّة.³⁶ وإذا ما تابع هذا التقسيم، فإنّه لن يصل إلى جدّة عاب غيابها في كتابات الاستشراق والمسلمين المعاصرين. ثمّ إنّ هذا المستند سيجعل الجابري يقع في تناقضات كبيرة أثناء ترتيبه للسور، وهنا سنقتصر على بعض الأمثلة من المرحلة السريّة وفق تقسيم ابن سعد/الجابري.

يضع الجابري سورة المدّثر أو على الأقلّ الآيات السبع أو العشر منها في الرتبة الثانية من حيث ترتيب النزول، ولعلّ مستنده في ذلك ما قرّره من أنّ "اللحظة الأولى تميّزت بكون ما نزل فيها من القرآن كان يتّجه بالخطاب إلى الرسول نفسه ابتداء من "اقرأ باسم ربّك" و"يا أيّها المدّثر" والضحى والليل إذا سجى ما ودّعك ربّك وما قلى" و"ألم نشرح لك صدرك" إلخ، (وضمنها مدّة انقطاع الوحي وهي سنتان ونصف)". (ص 228)

يمكن مناقشة هذا المعيار من خارج نصّ الجابري ودحضه على الإطلاق، لأنّه غير ذي معنى، ذلك أنّ ما سمّاه "بالخطاب إلى الرسول نفسه" لا يقتصر على ما عدّ من بواكر الوحي، فهذا النوع من الخطاب موجود في سور كثيرة تنتمي إلى فترات تاريخيّة مختلفة، ومنها ما اعتبر من المدنيّ بل من أواخره. وإذا ما اعتبرنا هذا المعيار، فلا حجة مثلا على اعتبار سورة المزمّل 73 متأخّرة كثيرا بالنسبة إلى المدّثر، مثلما ذهب إلى ذلك الجابري، إذ يجعل من سورة المزمّل تاريخيا السورة رقم 86؛ أي من أواخر السور المكيّة. ولكنا أثّرنا هنا التركيز على ما ذكره الجابري نفسه. إنّ الأمر "قم فأندز وربّك فكّبر" قد يفهم على أنّه لا علاقة له بسريّة الدعوة، أليس هذا أمرا بتبليغ الرسالة والإنذار والتكبير العلنيّين؟ نضيف إلى ذلك حديث الجابري عن آية الشعراء 214/26 التي تنطلق بالأمر نفسه تقريبا "وأندز عشيرتك الأقربين" وما بعدها من الآيات، يقول معلقا: "وهذا القرار لا يمكن أن يتّخذ والدعوة في مراحلها الأولى؛ فهو قرار ينبئ بقدم مرحلة جديدة تماما" (ص 227). ونتساءل ألم يكن من المنطقيّ أن تتأخّر آية الشعراء على آية المدّثر، خاصّة وأنّها آية خاصّة بالأقربين، في حين أنّ الثانية جاءت عامّة؟

ولكنّ الأعب من ذلك، أن يؤكّد الجابري أنّ "سورة المدّثر تنتمي الآيات السبع أو العشر الأولى منها إلى أوّل ما نزل بعد استئناف الوحي" (ص 224)، والتشديد منّا) ووجه العجب هنا أنّه إذا تابعنا الجابري في اعتماده

³⁶- راجع هذا التحقيب مختصرا ونقده في: هشام جعيط، تاريخيّة الدعوة المحمّديّة في مكّة، ص ص 228-233

السيرة، لعرفنا أنّ سورة الضحى نزلت بعد انقطاع الوحي أو ما يسمّى الفترة، وهذا ما يخلّ تماماً بترتيب الجابري الذي يعتبر المدّثر نزلت تاريخياً قبل سورة الضحى.

قد يطول الأمر إذا عدّنا الأمثلة على مثل هذا التضارب فيما اقترحه الجابري الذي انتهى به الأمر في فصله العاشر من مقدّمته إلى الإقرار التالي: "أعتقد أنّ ما قدّمناه هنا يعين على الوعي بأهميّة الهدف الذي توخّيناه، وهو التنبيه إلى ضرورة ربط فهمنا للقرآن بوقائع السيرة. ونحن نعتقد أنّ تحصيل هذا الوعي سيخفّف كثيراً من الضباب الذي يحيط بلائحة ترتيب نزول المعتمد، والتي ترجع في نهاية الأمر إلى ابن عباس. ليست هناك لائحة غيرها، وليس بالإمكان بناء لائحة جديدة تحلّ محلّها، ولكن بالإمكان التعامل معها" (ص230، التشديد منّا).

هذا ما انتهى إليه الجابري، وبناء عليه، فإنّ ما قدّمه بقي محدوداً جدّاً من جهة الترتيب التاريخي للقرآن، بل إنّنا نستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك إلى القول إنّ عمل الجابري كان مقترباً من تصنيف السور وفق المواضيع أكثر من بحثه في تاريخ نزول القرآن، وربّما هذا ما يفسّر اهتمامه الكبير بالقصص القرآني ممّا كان أو مدنيّاً، ليجعل من السور المشتملة على تلك القصص تنتمي داخليّاً إلى فترة تاريخيّة واحدة.

هنا تحديداً يمكننا التوصل إلى الوقوف على نوع من الترميق في عمل الجابري، فنجدّه مزجاً بين محاولات التقيّد بالموروث الإسلاميّ المأثور، وهو المقدمّ عنده، ومحاولات الاستشراق المعروفة وخاصّة نولدكه وبلاشير، إضافة إلى تصوّر مقترب من تصوّر هيرشفيلد لا يتفق معه في تفتيت سور المصحف، ولكنّه يوافق في مسألة النظر في مواضيع السور أو على الأقلّ في أجزاء منها.

استنتاجات وخاتمة:

لقد سعينا في هذا العمل إلى الوقوف عند بعض النماذج من محاولات ترتيب القرآن تاريخياً دون ادّعاء استيفاء كلّ المحاولات، ودون ادّعاء التعرّض إلى كلّ مستنداتها وما تثيره من إشكاليّات، ودون أن نتوقّف عند خلفيّات، مثل تلك المحاولات.

إنّ ما سعينا إليه بالأساس هو طرح عدد من الإشكاليّات لعلّها تكون منطلقاً لإعادة النظر في واحد من أبرز المواضيع التي شغلت وتشغل الباحثين في الدراسات القرآنيّة وفي السيرة وغيرهما من مجالات البحث في الفكر الإسلاميّ المبكّر تشكّلاً وتطوّراً.

ولئن بدا في الظاهر، أنّ تقسيم عملنا إلى ثلاثة أقسام كبرى تتعلّق بترتيبات القدامى ثمّ المستشرقين ثمّ المسلمين المعاصرين موحياً باختلافات كبيرة وجوهريّة بين المشتغلين على الترتيب التاريخي للقرآن، فإنّ ما

نريد تأكيده هنا هو في الحقيقة على عكس ذلك تماما؛ فالاختلافات التي أشرنا إليها لا يجب أن تحجب عنا نقاط تقاطع كثيرة وأساسية نعتبرها ممثلة لإشكاليات الترتيب التاريخي للقرآن مهما كان صاحب ذلك الترتيب أو توجهه أو خلفياته أو انتماءاته الحضارية والفكرية. ويمكننا هنا إجمال تلك النقاط/الإشكاليات المشتركة في ما يلي:

وطأة السيرة والموروث من المرويات الإسلامية:

لقد لاحظنا مرارا اعتماد كل من حاول ترتيب القرآن تاريخيا اعتمادا كبيرا على ما روي من أخبار سيرة النبي؛ ذلك أنه من المعلوم أنّ مصنّفات السيرة حملت العديد من الروايات التي قدّمها أصحابها بطرائق مختلفة، ولا نرى أنه يمكن ترجيح رواية على أخرى بالطرائق نفسها التي رجّح بها القدامى أخبارهم واختاروها وفق انتماءاتهم العقائدية والسياسية، ووفق بناهم الذهنية والفكرية. إنّ السيرة مهما كان قدمها، وأقدمها تعود إلى منتصف القرن الثاني الهجري، ليست خطابا في التاريخ في المقام الأوّل بقدر ما هي خطاب ديني لا يكتسب صدقه من مطابقته للواقع، وإنّما من تعبيره عن نمط مخصوص من الإيمان، كما أنّه بالإضافة إلى خطاب وقع تحت إكراهات التاريخ زمن كتابته وتشكّله، ممّا جعله يعبر عن واقع أصحابه أكثر من تعبيره عن ظروف مجتمع الدعوة. وقد لا يختلف الأمر كثيرا مع ما يسمّى "أسباب النزول" وأغلبها بعديّ يعكس تطوّر مشاغل المسلمين الحضارية والعقائدية والفقهية وغيرها، لذلك فهي صالحة لدراسة الزمن الذي نشأت فيه لا لدراسة ظروف نزول القرآن.

الخلط المفهومي ووحدة السورة:

من اللافت للنظر، أنّنا لمسنا خلطا في كلّ ما عرضناه من محاولات الترتيب التاريخي، وهو خلط في المفاهيم يتعلّق أساسا بثلاثة مفاهيم أساسية هي الوحي والقرآن والمصحف. ولئن كانت المماهة بين هذه المفاهيم مفهومة، بل ومنطقية بالنسبة إلى المسلمين القدامى، وهم ينطلقون مبدئيا من منطلقات إيمانية متعلّقة بتصور الوحي ونزوله وتشكّله قرآنا شفويا قبل تشكّله مصحفا مكتوبا، فإنّ تلك المماهة تبقى غير مفهومة بالنسبة إلى الاستشراق أو حتّى بالنسبة إلى الدراسات الإسلامية المعاصرة. إنّ المحاولات التي عرضنا شيئا منها هي في حقيقة الأمر لا تتعلّق بالقرآن ولا بالمصحف، وإنّما هي ألصق بترتيب الوحي تاريخيا. ولعلّ عدم الوضوح في هذه المفاهيم المتميزة كان من الأسباب المهمة للقول بالتوقيف في ترتيب الآيات صراحة بالنسبة إلى المسلمين المعاصرين و"ضمنيا" بالنسبة إلى المستشرقين؛ فكانت السورة عندهم جميعا وحدة للترتيب التاريخي، رغم الوعي بالتداخل بين المكّي والمدني وتأخّر أو تقدّم آيات على أخرى في السورة نفسها. صحيح أنّ الاختلاف بين المسلمين والمستشرقين جوهرّي في هذا المجال، إذ ينطلق المسلمون من البعد الإيماني كما أشرنا، ولكن نحسب أنّ عدم التمييز بين الوحي والقرآن لدى الاستشراق لم يسمح له بالنظر مثلا في البعد الشفوي الخاصّ بمفهوم

القرآن، وبالتالي عدم الانتباه إلى مسألة التكرار في القرآن وأخذ ذلك بعين الاعتبار، خاصّة وأننا نقف على مقاطع طويلة أحيانا مكرّرة، ولكن نقف لها على ترتيب تاريخي متباعد إلى حدّ كبير. وهذا ما لا يمكن إيجاد مبرّر علميّ مقنع له لا في الأسلوب ولا في اللغة ولا في قصر الآيات أو طولها، ولا حتّى في أحداث السيرة أو أسباب النزول.

عزل القرآن عن محيطه:

لقد قُدّم للكثير من الدراسات الباحثة في الترتيب التاريخي للقرآن بفصول مطوّلة أحيانا في المحيط الديني والاجتماعي والفكري الذي ظهرت فيه الدعوة المحمّديّة، غير أنّ اللافت للنظر أنّ تلك المقدمات لا نجد لها صدى فيما اقترحوه من ترتيب تاريخي، حتّى لنخالها بحثا منفصلا.

إنّ ذلك المحيط، الذي يجب أن يدرس بدقّة، ينبغي في تقديرنا، النظر في مدى تعلّقه بأسلوب القرآن ولغته ومواضيعه وجدله، إذا ما رما دراسة القرآن دراسة تاريخيّة علميّة. إنّ القسم في القرآن بالشمس والليل والضحى والسماء والطارق والنجم وغيرها من النجوم والكواكب أو فترات اليوم المقترنة بها، وكذلك القسم بعناصر الطبيعة، على سبيل المثال لا يمكن أن تكون معزولة عن محيط دينيّ سائد أو على الأقلّ كان معروفا، من المهمّ دراسته وربطه بسياق الدعوة المحمّديّة وتطوّرها وعلاقتها بمحيطها الديني.

إنّ مثل هذه الملاحظات لا تعدو أن تكون مداخل أخرى للبحث في الترتيب التاريخي للوحي، لا الترتيب التاريخي للقرآن، وهو بحث نحسبه عصيّا على الباحث المفرد لذلك نعتبر ما قدّمناه هنا دعوة لإعادة النظر في ذلك الترتيب، بالإفادة من البحوث السابقة دون شكّ، ولكن بالسعي إلى تجاوز ما قد نقف عليه فيها من نقائص ومحاولة تجاوزها.



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com